الفصل الثانى:

المقهى بين العلوم الإنسانية والوجدان الشعبي

"القهـوة هـى أهـم اختراعـات الإنسـان. والـذى اخترعهـا هـو بغيـر شـك مصلـح اجتمـاعى عظيـم.. فبغيـر القهـوة، لـم تكـن المقاهـي، وبغيـر المقاهـى لـم يكـن الحـوار ممكنـاً، وبغيـر الحـوار كان الإنسـان جزيـرة معزولـة عمّـا حولهـا"

من مقولات الشاعرة "سعاد الصباح" بكتاب "كلمات خارج حدود الزمن".

obeikandl.com

المقهى بين العلوم الإنسانية والوجدان الشعبي

مقهى، وأنت جالس.. لا، لست وحدك، نصف كأسك فارغ.. والشمس تملأ نصفها الثاني.. كم أنت حر أيها المنسىٰ فى المقهى!.. فلا أحد يرى أثر الكمنجة فيك.. لا أحد يحملق فى حضورك أو غيابك.. أو يدقق فى ضبابك إن نظرت.. إلى فتاة وانكسرت أمامها.. فاصنع بنفسك ما تشاء، اخلع.. قميصك أو حذاءك إن أردت، فأنت.. منسىٰ وحر فى خيالك، ليس لاسمك.. أو لوجهك ههنا عمل ضروري. تكون.. كما تكون.. فلا صديق ولا عدو يراقب هنا ذكرياتك.. مقهى وأنت مع الجريدة جالس.. فى الركن منسيا، فلا أحد يهين.. مزاجك الصافي.. ولا أحد يفكر باغتيالك.. كم أنت منسىٰ وحر فى خيالك.

{من قصيدة "مقهى وأنت مع الجريدة" للشاعر "محمود درويش"}

.. إن كانت الأبيات السابقة عند "محمود درويش" لتعبر عن روح

المقهى وعن تأثيرها على حرية إبداع روادها، إن أرادوا إبداعا.. فإن المهى بالنسبة للمبدع هو إطلالته اليومية على العالم، وعلى الحياة، فيكفى أن يكون وسط الناس ليزداد رصيده من الخبرات التى لا يستغنى عنها فى إبداعه. ولا يقتصر الأمر فى ذلك على الإبداع وفقط، ولكن يشمل كل مناحى خبرات الحياة.

يكفى لإدراك ذلك أن تتفحص قول كاتب بحجم "محمود السعدني" الذى كابد الرحلات وأكثر من الترحالات والتى كان من الممكن أن تملأ بطونا من الكتب؛ وهو يقر فى كتابه "مسافر على الطريق" بأن أثر "مقهى محمد عبد الله" عليه كان أكثر عمقا من كل رحلات حياته الداخلية والخارجية فى قوله: "ولكن على طول ما لفيت ونطيت فى بلاد الله، أصارحكم بان أعظم رحلاتى فى الحياة كانت بلا سفر، رحلة ساكنة ومستقرة وهادئة أو خاملة فى نظر البعض، رحلة قطعتها عبر سنوات طوال على مقهى بلدى فى الجيزة" (١) .

أو أن تتفحص قول الشيخ "رفاعة الطهطاوي" عن مرآة المقهى العجيبة لحظة وصوله مرسيليا سنة (١٨٢٦م)، ذاكرًا مراياها المتقابلة التى جعلته ولأول مرة يرى نفسه فيها متعددًا، كأنما هو يدرك ذاته فى هذا المقهى لأول مرة، فيقول: "وعادتها عند الإفرنج بسبب تعددها على الجدران، وعظم صورتها أن تعدد الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والأركان، ومن كلامي: يغيب عنى فلا يبقى له أثر.. سوى بقلبى ولم يسمع له خبر.. فحين يلقى على المرآة صورته.. يلوح فيها

(١) السعدني، محمود، مسافر على الرصيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م، ص٩.

يـدور كلهـا صـور"((١)).. ويعلـق "د. محمـود رجـب" علـى ذلـك بقولـه: "إن المشـهد الـذى يتحـدث عنـه الطهطـاوى هاهنـا هـو مشـهد الـذات ومواجهـة لوجهـه الخـاص فـى المـرآة.. فذلـك لأنهـا أتاحـت لـه اكتشـاف ذاتـه وأطلعتـه علـى صورتـه، بـل وضاعفتهـا وعددتهـا، أى دعمتهـا وثبتتهـا بالمطابقـة وأكبرتهـا وعظمتهـا بالانتشـار"((٢)).. فكأنمـا وهـو يتكلـم عـن مـرآة المقهـى يتكلـم عـن نظرتـه الجديـدة المتعـددة لذاتـه فـى بـلاد الفرنجـة الـتى اكتشـفها فـى المقهـى؛ كمـا اكتشـف صورتـه متعـددة الجوانـب فـى مرآتهـا.

فـى كتابـه "عمائـم

كثير من أعماله، وعليه تناقش قضايا مصيرية بعضها يتعلق بالاستقلال والحرية أو بالثورات، وأخرى تتعلق بالمصير الإنساني" (١) .

ومن قبل ذلك.. فـ"نجيب محفوظ" قال هو عن نفسه: "المقهى يلعب دورا كبيرا فى رواياتي، وقبل ذلك فى حياتنا كلنا، لم يكن هناك نواد، المقهى هو محور الصداقة، البيوت لا تسمح بالزيطة، فى البداية اتسع لنا الشارع، حتى تجرأنا على المقهى، عرفت المقهى فى سن مبكرة منذ أوائل الثانوي" (٢) ..

.. ومن فيض رواياته يشير "د. حسن يوسف" إلى بعض المقاهى التى تمحورت حولها أعماله (٣) :

فى روايته الأشهر "الحرافيش": تأثره بمقهى يحمل نفس الاسم "مقهى الحرافيش".

وفى "الثلاثية": قام بتخليد "مقهى سى عبده" فى أحداث محورية به.

وفى "الثلاثية" أيضا: تأثره بالأحياء السكنية المحيطة بمقهى الفيشاوى (السكرية وقصر الشوق وبين القصرين).

وفى رواية "قشتمر": الرواية محورها الدرامى يتحلق حول "مقهى قشتمر"، بل إن الرواية ابتدأت فى المقهى وانتهت فيه.

فى "رواية الكرنك": وقد استوحاها من زيارة "حمزة

(١) أماكن نجيب محفوظ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، دورية نجيب محفوظ، العدد٨، ٢٠١٥م، ص١٧.

(٢) الغيطاني، جمال، نجيب محفوظ يتذكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٢٧.

(٣) انظر بالتفصيل: جماليات المكان، المقهى عند نجيب محفوظ نموذجا.

البسيوني" لـ"لمقهى عرابي" ومن حكايات رواد المقهى عنه وكذا من رواد "مقهى ريش".

وقد تجلى المقهى ظهورا فى رواية "الكرنك" التى كان المقهى فيها هو البطل الرئيس ومنطلق الأحداث. وقد شهد المقهى فى الرواية - لقاءات النشطاء السياسيين من جيل الستينيات فى فترة ما بعد هزيمة ١٩٦٧م.

وقد روى "نجيب محفوظ" بنفسه عن أثر "مقهى عرابي" عليه فى إنتاجه لرواية "صباح الورد" (١) .

وفى رواية "زقاق المدق": تدور الأحداث المحورية فى "مقهى زقاق المدق" لصاحبها المعلم "حسين كرشة".

فى رواية "خان الخليلي": كثير من الأحداث يتمحور حول "مقهى الزهرة" بخان الخليلي.

فى رواية "السراب": "مقهى النوبيين" هو الذى مهد للعلاقة بين "كامل رؤبة لاظ" و"عليات".

فى رواية "بين القصرين": تحول "أمينة" إلى جزء من القهوة أسفل المنزل. وقعدة "ياسين عبد الجواد" المتكررة فى "مقهى سى عبده" على ناصية الصنادقية. ولقاءات "كمال عبد الجواد" مع "فؤاد جميل الحمزاوي" على "مقهى أحمد عبده".

فى رواية "بداية ونهاية": "حسن كامل" يتحول إلى فتوة فى "مقهى درب طياب".

رواية "اللص والكلاب": توجه "سعيد مهران" حين خروجه

---

(١) حكاية مقاهى الصفوة والحرافيش، ص٧٥.

من السجن إلى مقهى أو "غرزة المعلم طرزان".

مقاهى الإسكندرية: أثر مقاهى "النبى دانيال" و"تسيباس" و"على كيفك" بمحطة الرمل و"كازينو كليوباترا" فى أعمال مهمة مثل روايات "السمان والخريف" و"الطريق" و"ميرامار".

المطلب الثاني:

الزمكان والمقهى و"نجيب محفوظ".. حوار الهوية الدائم

هل من الممكن أن يكون التاريخ بلا جغرافيا؟.. وهل من المعقول إذًا أن يكون الوعى بالتاريخ دون مكان يتجسد عليه تجليات تاريخ ذاك الإنسان المنسوب له تاريخا؟.. وهل يستقيم تصور عاقل للحياة بدون زمان ومكان وحركة وإنسان؟.. وهل من الممكن نزع الوعى بالأمكنة من هذه الرباعية (إنسان.. زمان.. مكان.. حركة أو تجربة)؟.. وما قيمة الزمان والمكان بدون إنسان وتجربة؟.. وإذا كان التاريخ لا يتشكل إلا بمرور الزمان، فإنه أيضا لن يتشكل، ولن يستدعيه الإنسان ما لم يكن له مكان يحن إليه به. ومن دون المكان فإن الأحداث حتما ستدور فى فراغ متعمد يدعو للهزل والعبث.

وهنا أمر مهم فى المسالة الإبداعية.. "فالمكان ممكن أن يكون حميميا يحتوى على ذكريات الإنسان السعيدة، كما يمكن أن يكون عدوانيا يعكس نفسية الشاعر المضطربة والحزينة، التى باتت تشكو وطأة الحرمان والبعد عن الأهل والخلان" (١).

"وأحيانا يكون المكان أملا وأحيانا يكون ألما وكل ذلك راجع لما شاهدناه أو عايناه أو تمنيناه.. إنه المكان الذى يجعل لحياة الإنسان

(١) حمود، محمد العبد، الحداثة فى الشعر العربى المعاصر، بيانها ومظاهرها، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص٩٥.

معنى وهو البطل الحقيقى فى حركة الكائنات على الكرة الأرضية" (١) . فكما يقول: "المكان هو رمز يرتبط بدلالات معينة فى ذاكرة الكاتب وبحالاته النفسية" (٢)

وقد يكون المكان قادرًا على الإقامة فى أهله أكثر مّما هم قادرون على الإقامة فيه كما يقولون والإنسان الذى تشكله البيئة تشكله الأماكن كذلك.. والمكان رغم ثباته الخارجى يتغير فى داخل الإنسان بسبب مرور الزمن وبسبب خبرات المعاناة والألم (٣) .. لذا فإن من الأماكن أنواعا عديدة: فمنها "المكان الحميم"، ومنها "المكان المعادي" مثل الغربة أو المنفى، ومنها "المكان المحايد".

وممن أوائل من أصل وقَعَّد ونَظَّر لجماليات المكان الفيلسوف الفرنسى "جاستون باشلار" (١٨٨٤م: ١٩٦٢م) الذى قال: "المكان يؤثر على سلوكيات الإنسان بشكل مباشر" (٤) . فهو يفرز رمزية جمالية وفكرية، فالمكان عنده ليس مجرد أبعاد هندسية بل إنه يحمل قيما سيونفسية وفنية تدفع الإنسان باستمرار إلى التذكر والتخيل.

وباشلار يصرح بأن البيت المجرد من سكانه ليس مجرد

---

(١) جماليات المكان، المقهى عند نجيب محفوظ نموذجا، ص٦.

(٢) علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، عرض وتقديم وترجمة، المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ١٩٨٤م، ص١١.

(٣) عبد الحميد، شاكر، جغرافيا الوهم وتاريخ الواقع، مجلة القاهرة، العدد١٠، مارس ١٩٩٦م، ص١٨٥.

(٤) باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٤م.

صندوق، لكنه يحوى عبق الإنسان، والمكان الذى به سكانه يتجاوز الشكل الهندسى إلى الشكل الإنسانى إما حبا وحنينا، وإما كرها ونفورا. ثم ينبغى ملاحظة أن التغير الحادث فى سمات وتكوين المكان يلعب دورا هاما فى تشكيل السلوك الفردى والتفكير أيضا.

استحالة فصل الزمان عن المكان

وتبعا لباشلار.. فى بعض الأحيان نعتقد أننا نعرف أنفسنا من خلال الزمن، فى حين أن كل ما نعرفه هو تتابع تثبيتات فى أماكن استقرار الكائن الإنسانى الذى يرفض الذوبان، والذى يود حتى فى الماضي، حين يبدأ البحث عن أحداث سابقة، أن يمسك بحركة الزمن، إن المكان، فى مقصوراته المغلقة التى لا حصر لها، يحتوى على الزمن مكثفا. هذه هى وظيفة المكان (١) .

وقد كان مفهوم "الزمكانية" (الزمان/ المكان CHRONOTOPE) انعطافة فى تطوير "مفهوم المكان"، وقد أطلقه "باختين" سنة (١٩٣٨م) فى كتابه "أشكال الزمان والمكان فى الرواية"، ويفيد هذا التطور فى المفهوم صعوبة الفصل بين الزمان والمكان فى شكل العمل الفني، مثلما أوضح "باختين" فى ملاحظاته الختامية على

(١) ومن ذلك مثلا.. الأغنية الشهيرة للمطرب "مدحت صالح" من تأليف الشاعر "مدحت الجمال" التى يقول فيها: "رافضك يا زماني.. يا أواني.. يا مكاني.. أنا عاوز أعيش.. فى كوكب تاني".. فى هذه الأغنية تجسيد مكثف لفكرة المكان المعادى المكروه، مع ملاحظة أنه حين يرفض المكان يرفض معه الزمان، وذلك لصعوبة الفصل. ومن أمثلة ذلك أيضا.. الهتاف الذى هز أركان ميدان التحرير فى "ثورة ٢٥ يناير" الذى كان يقول: (ارحل.. ارحل..).. فالهتاف يدل على رغبة الثوار فى مفارقة مبارك للمكان، وهذه المفارقة ليس بالضرورة أن يكون المكان الذى سيرحل منه هو مكان بعينه، ولكنه مكان اعتبارى يدلل على زمان حقيقي.. أى (ارحل) من أيامنا، (ارحل) من زماننا.

كتابـه (المكتوبـة سـنة ١٩٧٣م) (١) .

وهـذا مـا يقـرره "فرانكـو موريـني" : "إن المـكان هـو القريـن الضـرورى للزمـان والفـرد فـى المنطـق، فالفـرد حالـة محـددة تُعـرف بالإشـارة إلـى نظيريـن: المـكان والزمـان. وفـى علـم النفـس تكـون فكرتنـا عـن الزمـان مندمجـة دومـا مـع فكـرة المـكان" (٢) .

.. مـا سـبق يختصـره "صفـوت كمـال" فـى قولـه: "والزمـان والمـكان يتحـدان فـى الفعـل فينشـأ الزمـان فـى المـكان، ويعلـو الحـدث بالمـكان إلـى الزمـان" (٣) .

علاقة المكان بالهوية والمواطنة

"ويلعـب المـكان دورا هامـا فـى تكويـن هويـة الكيـان الجمـاعى والتعبيـر عـن المقومـات الثقافيـة، خاصـة بعـد أن أثـرت العوامـل البيئيـة علـى المفاهيـم الأخلاقيـة والجماليـة الـتى تحـرك الشـعوب فـى جميـع أنحـاء العالـم ويصبـح المـكان إشـكالية إنسـانية إذا اغتُصـب أو حُـرم منـه الإنسـان" (٤) .

ولبيـان الأمـر واقعيـا نسـتخدم رؤيـة مصمـمى المـدن حيـث "يسـتخدم المعماريـون وغيرهـم مـن مصمـمى المـدن والمبانـى تعبيـر "الإحسـاس

(١) أبو هيف، عبد الله، جماليات المكان فى النقد الأدبى العربى المعاصر، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد٢٧، العدد١، ٢٠٠٥م.

(٢) موريني، فرانكو، علامات أخذت على أنها أعاجيب، ترجمة: ثائر أديب، ط١، المركز القومى للترجمة، مصر، ٢٠٠٨م، ص٢٩.

(٣) كمال، صفوت، من أساطير الخلق والزمن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١م، ص١٨٣.

(٤) جماليات المكان، المقهى عند نجيب محفوظ نموذجا، ص٥٠.

بالمكان" (SENSE OF PLACE) لوصف تلك القدرة التى يمتلكها مكان معين على إحداث واستحضار معانٍ مشتركة، لكنها تتسم بالخصوصية فى الوقت نفسه" (٥) . وباستخدام مقارنة "ريلف" (RELPH) (١٩١٣م: ٢٠٠٥م) الذى قارن بين فكرة "الإحساس بالمكان" وفكرة "فقدان الإحساس بالمكان" (PLACE LESSNESS) فى المدن الحديثة النمطية التى تعمل على إخفاء الملامح المحلية والخصال الفريدة المميزة للمكان، التى يمكن من خلالها المقارنة بين شعب وشعب آخر، ليصير الأمر إلى "أماكن الأنماط الدولية" باستخدام تعبير "سبيفاك" (SPIVACK) (١٩٤٢م). وفى هذا كما يقول بعض الباحثين طريق إلى تزايد الاضطراب فى السلوك الاجتماعى وفقدان الشعور بالأمان وحسن الحال.

والأنماط الدولية تلك تسعى ضمن ما تسعى إلى طمس الهويات المختلفة لصالح هوية واحدة، وهى هوية القَوى الذى يريد أن يفرض سيطرته، ويرى العالم من منظوره هو، أو يراه من منظور الإمبريالية الغربية وفقط.

"ولئن كان المكان وعاءً للهوية، فإن الإحساس بالمكان بالتالى يمثل جزءا من الأيديولوجية، والمكان فى هذه الحالة تحقيق لوجود الإنسان، واللا مكان هو الضياع واللا وجود.. وثقافة اللا مكان هى بالضبط ما تنشده الشركات متعددة الجنسيات العابرة للقارات -التى تتحكم فى سياسات العالم فعلى سبيل المثال فى نشرها للمطاعم المنمطة بالنمط الواحد، ذات الديكور

(٥) المرجع السابق، ص٤٩.

الواحد، والطعام الواحد، لأنها تجسد فيه حقيقة "اللا مكان"، وهو ما يسميه المسيري: (المكدلة) نسبة لمطاعم "ماكدونالدز"، و(الكنتكة) نسبة لمطاعم "كنتاكي" (١) .

وباشلار يؤصل لعلاقة ثقافة المكان بتشكيل الهوية، فيقرر أن "المكان ليس مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها الإنسان، إنما هو الرقعة التى تضرب بجذوره وتتأصل فيها هويته، ومن ثم يأخذ البحث عن الكيان والهوية شكل الفعل على المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها الأنا صورتها، فاختبار المكان وتهيئته يمثلان جزءا من بناء الشخصية البشرية" (٢) .

وهذا ما جعل "عواطف سيد أحمد" تقول: "إن العلاقة بين الشخوص والمكان تعطيه أبعادا سيونفسية وفكرية، بمعنى أن المكان قد يكون مرغوبا فيه وقد يكون معاديا. فإحساسنا بالمكان جزء من أيديولوجيتنا، فالمكان تحقق لوجود الإنسان، واللا مكان هو الضياع واللا وجود، وهو ما عبر عنه الشاعر الكبير "محمود درويش" بقوله: **(فاللا مكان هو المكيدة)** " (٣) . و"ياسين النصير" يؤكد على ذلك حين يربط المكان بفكرة "المواطنة" فيقول: "ففاعلية الوعى بالمكان جزء من فاعلية الوعى بالمواطنة" (٤) .

---

(١)رحومة، كامل مصطفى، المسيرى وثقافة المكان، دار كتابي، مصر، ط١، ٢٠١٥م، ص ٩٨، باختصار.

(٢) جماليات المكان، باشلار، مرجع سابق، ص٦٣.

(٣) أحمد، عواطف سيد، أبى حصيرة، مولد وصاحبه زائف، دار روافد، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م، ص٦١.

(٤) النصير، ياسين، إشكالية المكان فى النص الأدبي، دار الشئون الثقافية، العراق، ط١، ١٩٨٦م، ص٨.

.. وهـذا الأمـر ممـا أثـار فـى النفـس التأمـل.. لمـاذا اختـارت المطربـة الكبيـرة "فيـروز" و"الأخويـن رحبانـي" المقهـى لتجسـيد إشـكالية الجدليـة بـين الزمـكان والوطـن فـى أغنيتهـا الشـهيرة "قهـوة ع المفـرق"؟.. والـتى تقـول:

"فـى قهـوة ع المفـرق فـى موقـدة و فـى نـار.. نبقـى أنـا وحبيبـى نفرشـها بالأسـرار.. جيـت لقيـت فيهـا عشـاق اثنـين صغـار.. قعـدوا علـى مقاعدنـا.. سـرقوا منـا المشـوار.. يـا ورق الأصفـر عـم نكبـر عـم نكبـر.. الطرقـات البيـوت عـم تكبـر عـم تكبـر.. بتخلـص الدنـى ومـا فـى غيـرك يـا وطـني.. يـا وطـنى يـا وطـني.. بتضللـك طفـل صغيـر.. متـل السـهم الراجـع مـن سـفر الزمـان.. قطعـت الشـوارع مـا ضحكلـى إنسـان.. كل صحابـى كبـروا واتغيـر اللـى كان.. صـاروا المـر المـاضى وصـاروا دهـب النسـيان.. يـا ورق الأصفـر عـم نكبـر عـم نكبـر.. الطرقـات البيـوت عـم تكبـر عـم تكبـر.. بتخلـص الدنـى ومـا فـى غيـرك يـا وطـني.. يـا وطـنى يـا وطـني.. بتضللـك طفـل صغيـر.." لمـاذا؟.

المقهى وفلسفة الزمكانية فى أدب "نجيب محفوظ"

لمـا توصـل "ألبـرت أينشـتاين" (١٨٧٩م: ١٩٥٥م) إلـى النظريـة النسـبية الـتى تسـتدعى الزمـان داخـل المعادلـة الكونيـة لعلاقتـه بالمـكان "الطـول والعـرض والارتفـاع"؛ لـم يكـن يظـن أحـد أنهـا سـتكون رؤيـة كاملـة للكـون تتأثـر بهـا الفنـون والآداب والفلسـفة وكافـة العلـوم الاجتماعيـة. وممـا تأثـر بهـذه النظريـة النقـد الأدبـي، وأمسـت النظريـة النسـبية أو "الزمكانيـة" أحـد مفـردات النقـد الأدبـى الحديـث. وأصبـح النقـاد يـرون "الزمـكان" فـى

أعمال الأدباء عن طريق تقنية الاستدعاء المكانى انطلاقا من المكان الراهن لاستكمال الحلقات المفقودة زمانيا ومكانيا.

فمن قائل: "للأدب الجيد جغرافيا جيدة" (محمد المنسى قنديل)، وآخر: "دون المكان يفقد الزمان فعاليته" (إبراهيم عبد المجيد)، وثالث: "فرادة الروائى تكمن فى علاقته بالمكان" (يوسف القعيد)، ورابع: "الآتى هو المكان الحلم" (محمد المخزنجي)، وخامس: "وعينا يطوف دائما بالأمكنة.. سواء التى انحدرنا منها أو تلك المثيلة أو البديلة التى تذكرنا بها" (سعيد الكفراوي)، وسادس: "الزمان قرية المكان.. وعلى مستوى الإبداع زمان يتحرك فيه شخص ما فى مكان ما، إذن فالمكان شرط إبداعي" (مدحت الجيار)، وسابع: "المكان هو الذى يجذب أصحاب الخيال الحالمين فتتجلى فيهم روح الإبداع" (ناجى أسعد)، وثامن يؤصل لجماليات المكان فى الأدب قائلا: "الرواية هى فن المدينة" (حسن يوسف طه).

وتعتبر مقولات الفيلسوف الروسى "ميخائيل باختين" (١٨٩٥م: ١٩٧٥م) حول العلاقة الجدلية بين الإنسان والزمان والمكان فيما سمى عنده بمفهوم (متصل الزمان/ المكان)؛ هى الإطار المنهجى الذى اتخذه كثير من دارسى ظاهرة الأثر النفسى والوجدانى لبعض الأماكن على بعض الأشخاص، خاصة فى الأعمال الأدبية.

.. لكن اللافت للنظر فى منطقتنا الشرقية أن الدراسات المتخصصة فى هذا السياق قد أكثرت من نقد أعمال "نجيب محفوظ" على وجه الخصوص، وكان من نتيجة تلك المعالجات؛ اتفاقهم جميعا على

محورية المكان فى معظم أعمال محفوظ، وللوصول إلى هذه النتيجة لا يحتاج سوى نظرة بسيطة على عناوين الكثير من رواياته التى تحمل فى طياتها عبق الأمكنة، مثل: "القاهرة الجديدة" و"خان الخليلي" و"زقاق المدق" و"بين القصرين" و"قصر الشوق" و"السكرية" و"حكايات حارتنا" و"أولاد حارتنا".. إلخ (١) .

كما يقرر الكثير من النقاد أن أدب "نجيب محفوظ" يعد بحق ذاكرة مصر المكانية والزمانية، حيث كانت أعماله كشفا لجمالية المكان وعمقه الزمني، وكشفا لتحولات هذا المكان بتحولات الكائن، وتحولات الكائن بتحولات الزمان، من خلال رؤية إبداعية قل نظيرها فى الأدب الإنساني.

وكذا اتفاق أغلبهم على اختزال الزمكانية عنده فى الحارة والمقهى وأشياء أخرى. مثل "د. حسن يوسف طه" الذى يقول: "المقهى بالنسبة لـ"نجيب محفوظ" كتاب يشتمل على كل عالم صغير يتشكل فى كل دقيقة وفى كل يوم ويتجدد مع كل موقف ويحتشد بالنماذج المختلفة والشخصيات السوية والشاذة.

وربما ساعد ارتياده للمقاهى منذ صباه على أن يتعرف على الحياة فى تشكلها وتباينها فانعكس على كتاباته طاقة هائلة على خلق الشخصيات.. وليست مبالغة إذا قلت إن كل رواية من رواياته تقريبا مقهى بشكل أو بآخر، "زقاق المدق"، "ثرثرة فوق النيل"، "ميرامار"، "الكرنك"، "ليالى ألف ليلة"، "اللص والكلاب"..

(١) نظر: جماليات المكان، المقهى عند نجيب محفوظ نموذجا، ص٢٣، ٢٤.

فهى إن لم تكن مرايا لمقهى فهى مشدودة على المقهى وتنطلق منه. حتى إن رواية الكرنك ولدت فى "مقهى الفيشاوي" عندما رأى نجيب "حمزة البسيوني" لأول مرة" (١) .

ومثل "نجاة علي" فى دراستها "المقهى زمكان التحول" أيضا تقول": "إن نجيب ككاتب هو ابن المقهى المصرية، كان يجلس ويقرأ فى مقهى شعبي! بل إننا يمكن أن نتخيل الراوى فى بعض رواياته كما لو كان يعيش دور المراقب لما يحدث من حوله، وليس مراقبا منفصلا عن الحدث، فلم يكن مقهى زجاجيا، بل على العكس سوف نجد أن جزءا منه يبدو منغمسا فى حياة الناس وتفاصيلها، وإن كان بعض الأماكن يصل إلى درجة الأساطير" (٢) .

وهذا ما دعا "صلاح عبد الحميد للقول تحت عنوان "إنسانية المقهى" عند "نجيب محفوظ": "للمقهى عند محفوظ لها ما للشخصية الإنسانية من أبعاد (جسمانية اجتماعية نفسية) جعل المقهى عنصرا له فاعليته منفصلا عن الأمكنة الأخرى ومتصلا به وبالذين ينضافون إليها وتنضاف إليهم من البشر" (٣) .

سمات المقهى كمكان فى أدب "نجيب محفوظ"

والمقهى كمكان جوهرى ومحورى فى أدب "نجيب محفوظ" يصفه "فتحى عبد الله" بقوله: "إن المقهى فى سرد محفوظ من أكثر

(١) المرجع السابق، ص ٦٥، ٦٦.

(٢) أماكن نجيب محفوظ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، دورية نجيب محفوظ، العدد٨، ٢٠١٥م، ص٧٥، ٧٦.

(٣) المقاهى فى تاريخ الأدب، ص٧٤.

الأماكن ليبرالية أو أقربها إلى قلبه، وقد أثر على طريقة السرد إذ جعله مفتوحا ومتعددا فى اختيار الأحداث والشخوص الفاعلة" (١) . لكن "حسن يوسف طه" يرصد أهم سمات المقهى كمكان عند "نجيب محفوظ" فى الآتى (٢) :

أنه مكان التقاء وليس افتراق..

أنه مكان مضيء وليس مظلمًا..

أنه مكان اختيارى للقاء وليس إجباريًا..

أنه مكان حركة وليس سكون..

أنه مكان مفرح وليس مقبضًا..

أنه مكان يتسم بالزحام وليس بالندرة..

أنه مكان يتسم بالصخب وليس مكانًا هادئًا..

أنه مكان شعبي..

أنه مكان الأصوات فيه متميزة..

أنه مكان قديم غالبًا عند "نجيب محفوظ" إلا فيما ندر..

المقهى عند "نجيب محفوظ" واقعى لكنه كثيرًا ينتقل به إلى الرمزية.. فيتحول المكان الواقعى إلى مكان رمزي.

---

(١)مقال بعنوان "سرد محفوظ أفندى فى ثقافة العرب"، بقلم: "فتحى عبد الله"، بمجلة الثقافة الجديدة، عدد خاص عن نجيب محفوظ، ٢٠٠٦م، ص١٧٠.

(٢) جماليات المكان، المقهى عند نجيب محفوظ نموذجا، ص٧٢، ٧٣.

obeikandl.com